روح الملاحظة العلمية عند الامام علي عليه السلام

بقلم: الدكتور محمد جواد رضا

لست أدري إذا كان حديثي هذا سيدخل في باب البحث أو النظرية في «روح الملاحظة العلمية عند الامام علي عليه السلام» . فهو على نسب من كل أولئك ، ثم هو ليس بواحد منها في وقت معا ، إذ هو غير مستكمل من شروط أحدها ما يجعله به ، ولكن لن يقصر أن يكون مقدمة لها أو لكل منها . أو هو بكلمة أوضح مقدمة في فلسفة العلم عند الإمام . ولست أريد بكلمة العلم هنا غير معناها الاختباري الذي تمخضت عنه الحركة العلمية المعاصرة ، والذي أصبح يعني في جملة ما يعنيه طريقة معينة لاكتشاف الحقائق العلمية وتحسين طرق البحث معتمدة على الملاحظة وصوغ الفرضيات ، ثم فلسفة كاملة ونظرة جديدة الى الانسان ، نظرة اتفق بمقتضاها على أن الأحداث الطبيعية تتخذ في الحدوث طريقا منتظمة يمكن اكتشافها بالحواس وقياسها بدقة كما يمكن التعبير عنها كمياً . بعبارة أخرى أريد بكلمة العمل هنا جملة القوانين الثابتة في الطبيعة التي تعطيها شكلها وتحدد غايتها ووجهتها .

إن فكرة القانون الطبيعي ، أو القانون في الطبيعة ، أي فكرة وجود مقياس للانتظام والثبات في الحدوث يمثل عنصراً هاماً في عملية حفز الانسان الى التماس المعرفة التقنية والطريقة العلمية والتأمل . فمن دون قدر معين من التناسق والتناغم والرفق في طبيعة الأشياء لن تكون هناك معرفة حقيقية ولا أية طريقة نافعة في طلب الحقيقة كما يفتقد الغرض الذكي من العلم . ومتى ما فقد القانون في فهم الطبيعة فلن يظل بين أيدينا غير خليط من التفاصيل المبتورة المبتوتة السبب بالتفاصيل المماثلة المنحدرة من الماضي أو المتوفرة في الحاضر . على أن التعبير عن القانون الطبيعي بدقة واحترام مناسبين لما هو مفترض أساساً في الأغراض الانسانية هو أمر غاية في العسر واللزوم ، وبهذا دخلت فكرة القانون الطبيعي الى كل ميادين المعرفة الإنسانية الحديثة والمعاصرة .

على أن التطلع الى ادراك القوانين الطبيعية يغور عميقا في ضمير الانسان وخبراته على هذه الأرض . ولقد يقرر علماء الأجناس أن البدايات المبكرة لالتماس القانون الطبيعي ارتبطت

بالطقوس القبلية ازاء تعاقب الفصول السنوية وبصورة خاصة فصل الربيع وفصل الحصاد ، وأواسط الشتاء ، وان هذه الطقوس انطوت على اشارة الى الزراعة وأهميتها في حياة الانسان . وتمثل الزراعة حتما الخطوة الحاسمة الاولى في تقدم الإنسان نحو الحضارة . ويرمز اكتشاف الزراعة الى بلوغ الإنسان درجة عالية من التأمل في الحدث الطبيعي ، اي في حدوث الظواهر الطبيعية وتعاقبها ، ذلك أنها أي الزراعة تتطلب قوة على التنبؤ بمجرى الأحداث الطبيعية لأشهر قادمة . كذلك يلاحظ علماء الأجناس أن الاختلاف بين الفصول يفرض اختلافا في سلوك الكائنات الحية من النباتات والدواب الى أرقى الكائنات الحية على حد سواء وأن تحفيز الكائن الحي الى تبديل سلوكه وعاداته طبقا لتبدل المواسم كان دائما يترجم عن نفسه في قلق واضطراب عقلي وعاطفي لدى تلك الكائنات . كذلك يقرر علم الأجناس أن الحضارة لم تبدأ بعقد اجتماعي يقرر انماط السلوك لأفراد الهيئة الاجتماعية ، بل ان جهود الأفراد المبكرة تركزت في التقدم البطيء للأفكار التفسيرية لأنماط السلوك والتقلبات العاطفية التي كانت قد هيمنت على سلوكهم فعلاً وليس من ريب في أن هذه الأفكار التفسيرية قد حورت سلوكهم أيضاً وتلك ظاهرة ثابتة في تطور الإنسان . الفعل يسبق الفكرة ، والفكرة تعنى في الغالب بتبرير الأوضاع أو الأحوال القائمة مسبقا أو تحويرها . وعلى هذا يمكننا القول ان عادات الكائنات الحية مبنية عموما على أساس الحدوث المتكرر للفصول السنوية وماتحمله لها من الحرارة والصقيع ، من المطر والمحل ، من الليل والنهار . وقد رافقت ذلك في البداية أسئلة ساذجة سرعان ما مهدت السبيل أمام الأسئلة العنيفة التي استطاعت ان تحرك قلق العقول الممتازة للاجابة عليها وكان ذلك بداية جهاد الانسان من أجل المعرفة . ومحتمل جداً أن تكون عدة أسباب قد اجتمعت في البداية لتحقيق هذه الاثارة غير أن الزراعة فيما يبدو ظلت تحتل المكان الأسمى بينها وذلك لفاعليتها في التعجيل بعملية التطور وزيادة زخمها . فهي أولاً أثارت اهتمام الإنسان بالرياح وجعلتها مركز تفكيره كما أنها أثارت تفكيره بعملية التوالد والتكاثر . واذ كانت زراعة الخضروات تعتمد في نموها على الفصول فإنها دفعت بالإنسان الأول الى النزول من الرضا اللا أبالي بالملاحظات العامة الى الغوص في تفاصيل الأشياء ودفعت به الى الاجراءات الوقائية التي تطلب اكتشافها تفهم جوانب أخرى من الطبيعة .

ومعنى هذا كله ان الحياة قد بلغت الآن مرحلة تحدث فيها مشاكلُ واضحة للعقول الأكثر نشاطا حينما وجدت تلك العقول . وقد تركت لنا تلك العقول النشطة الفعالة خلاصة تجاربها في أساطيرها ، الأساطير ـ التي مهما كان حكمنا عليها ـ فإن جوهرها يشير الى استيعاب الانسان الأول حقيقة أن العلم والتقنية ـ بغض النظر عن درجتهما من التعقيد ـ مبنيان على القانون . فما هو معنى القانون في الطبيعة ؟

في الوقت الحاضر هناك اتفاق على أربعة أنواع من قوانين الطبيعة هي (١) قانون التلازم أو الثبات (٢) القانون المفروض (٣) القانون كنظام ملحوظ للحدوث والتعاقب الذي يقول بأن الظواهر الطبيعية تقع بشكل منتظم ، و (٤) القانون العرفي ، القانون المستمد من الاتفاق .

وبقدر مايتعلق الأمر بهذا الحديث فإننا سنقف عند القانون الثالث وهو القانون الايجابي في تفسير الحدوث الطبيعي . ويؤكد هذا القانون على الثبات النمطي الملحوظ في تعاقب الظواهر الطبيعية . انه يفترض مسبقا أن لنا الفة قديمة بتعاقب الحدوث ، وان هذه الالفة قابلة للتحليل في سلسلة من تعاقب الاشياء ولكن معرفتنا المباشرة هذه ليست مجرد ملاحظات متميزة بالتعاقب وحسب ولكنها تشمل أيضاً معرفة مقارنة بالملاحظات المتعاقبة نفسها ، وهذا التميز يعطي المعرفة الانسانية طبيعة تراكمية ومقارنة في وقت معاً . وبهذا فليس القانون شيئاً آخر غير الأنماط الثابتة من الحدوث خلال ملاحظات مقارنة . بعبارة أخرى إن القانون الطبيعي يحدثنا عن الأشياء الملحوظة فقط . وهكذا يكون العلم معنياً بتقريرات بسيطة تفسر تأثيراتها المشتركة كل شيء ذي أهمية يتعلق بالحدوث المتكرر . ان هذا القانون يطالبنا أن نتمسك بالأشياء الملاحظة وان نضعها في أبسط ما يمكن من العبارات وهذا هو كل ما نستطيع معرفته .

القوانين في الطبيعة اذن هي الحقائق الملاحظة ، في التجارب الانسانية الواضحة التي تؤلف أموراً قابلة للفهم وليست شيئا آخر . وقد لخص فرانسيس بيكون هذا القانون بقوله : لاحظ ثم لاحظ حتى تقع على نظام في التعاقب والاشتقاق للحدوث الطبيعي .

بهذا المعنى من معاني العلم أود ان اقارب النزعة التأملية عند الإمام عليه السلام وهي نزعة فيما يبدو لي قلما تأتت لرجل من رجال السياسة في التاريخ الاسلامي كله حتى لقد يخيل اليّ انه لو لم يخلق الإمام للقيادة الدينية والسياسية والحربية لكان قد خلق للمختبر والحقل التجريبي . والامام يبهر دارسيه بالتفاتات علمية عن نظيرها على غيره من رجال الإسلام ، بل عن نظيرها على كثير من المشتغلين بالعلوم في التاريخ الاسلامي . ويحفل نهج البلاغة بنماذج فريدة من التقرير العلمي الدقيق الناجم عن الملاحظة المباشرة المستدقة والمفرغة في قوالب لغوية هي غاية في الاحكام والبساطة والوضوح . والامام هنا يبهر دارسيه بتبحره في تسجيل دقائق أوصاف بعض المخلوقات وملاحظة عجيب أطوارها وتركيب ألوانها وأنماط سلوكها وفنونها في اكتساب عيشها وحفظ نوعها . وقد شمخت بين نماذجه الفريدة هذه أوصافه للخفاش والجرادة والنملة والطاووس سأجتزىء بها تمثلا عما ينطوي عليه النهج من نماذج كثيرة اخرى في وصف الكون والانسان والمجتمع ، واقتناعا بروح العلم المهيمن على هذا العصر الذي نعيش فيه وتفاعلها مع مسؤوليات الجامعة المعاصرة التي تتحمل مسؤولية تربية مجتمع المستقبل على هذه الروح العلمية التي يقف ازاءها المجتمع مخيرا بين القبول بالعلم أساسا لبناء الحياة وبين التخلف

والانقراض شأن كل المخلوقات والمؤسسات الاجتماعية التي انقرضت لأنها عجزت عن تحقيق درجة عالية من الملائمة بين انماط حياتها وبين متطلبات التبدل في الظروف المحيطة بها .

ويكشف الامام في هذا الصدد عن اهتمام عظيم بالظواهر الطبيعية التي يلاحظها ويدرسها ويصفها من دون تفريق بينها على اساس من ضآلتها أو خطرها وبهذا يسلك سلوك العالم الأصيل الذي يلتمس معرفة القانون الطبيعي الذي ينتظم حياتها كلها ويفسر وجودها مجتمعا ، تفسيرا لا تشذ فيه قضية عن قاعدة . فهو اذ يستوقفه الكون المهيب الجليل بأسراره وخفاياه وعظمته ، الكون الذي جعله الله يبسا جامداً من ماء البحر الزاخر المتراكم «ثم فطر منه أطباقا ففتقها سبع سموات بعد ارتتاقها فاستمسكت بأمره وقامت على حده ، وارسى أرضاً يحملها الاخضر المثعنجر والقمقام المسخر» و «جبل جلاميدها ونشوز متونها وأطوارها فأرساها في مراسيها والزمها قرارتها فمضت رؤوسها في الهواء ورست اصولها في الماء ، فأنهد جبالها عن سهولها وأساخ قواعدها في متون أقطارها ومواضع انصابها» ، وهو إذ يرسل أفكاره في مغامرة لتفسير هذا الوجود العظيم لا تفوته الكائنات الضعيفة الضئيلة الهينة الشأن والخطر كالخفافيش فيتقصى حياتها وتركيبها بنفس الحرص والاهتمام الذي يدرس به الكون المحيط فيقول في وصفها «ومن لطائف صنعته وعجيب خلقه ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل حي وكيف عشيت اعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نورا تهتدي به في مذاهبها وتتصل بعلانية برهان الشمس على معارفها . وردعها بتلألؤ ضيائها عن المضي في سبحات اشراقها . واكنها في مكامنها عن الذهاب في بلج ائتلاقها . فهي مسدلة الجفون بالنهار على حدائقها ، وجاعلة الليل سراجا تستدل به في التماس ارزاقها . فلا يرد أبصارها اسداف ظلمته ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دجته . فإذا القت الشمس قناعها وبدت أوضاح نهارها ، ودخل من اشراق نورها على الضبَّاب (جمع ضب) في وجارها أطبقت الأجفان على مآقيها وتبلغت بما اكتسبته من المعاش في ظلم لياليها . فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً ، والنهار سكناً وقراراً وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة الى الطيران كأنها شظايا الآذان غير ذوات ريش ولا قصب الا انك ترى مواضع العروق بينه اعلاما لها جناحان لم يرقا فينشقا ولم يغلظا فيثقلا» .

على أن أروع ملاحظات الإمام العلمية التي تركها لنا تتمثل في وصفه الدقيق للطاووس ، وأنا أريد أن أتخطى الجرادة والنملة لاصل الى وصفه عليه السلام لهذا الكائن الجميل العجيب الذي أثبته الامام بعين ميكروسكوبية لاتفوتها فائتة من ألوانها وهيئته وسعيه الى انثاه ومواقعتها ، وخيلائه وزهوه بنفسه الى انكساره وأله لقبح ساقيه ونشوزهما عن جماله العام حتى لقد يرتفع عنده هذا الإحساس بالألم والانكسار الى درجة الخيبة النفسية المريرة ومن خلال ذلك كله يفند الامام بعض النظريات الخاطئة التي وضعت لتفسير بعض جوانب حياة هذا الطائر . حقا اني

ما قرأت وصفه له إلا شعرت بمباهج الفلسفة تغمرني احساساً وانفعالاً أريدكم أن تشاركوني فيهما بأن نلقي جميعا نظرة فاحصة الى تفاصيل هذه الصورة الهائلة قال عليه السلام :

«ومن أعجبها خلقا الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل ، ونضد ألوانه في أحسن تنضيد بجناح أشرج قصبه وذنب أطال مسحبه . اذا درج الى الأنثى نشره من طيه وسما به مطلاً على رأسه كأنه قلع داريّ عنجه نوتيه . يختال بألوانه ويميس بزيفانه . يفضي كافضاء الديكة ويؤر بملاحقة أرّ الفحول المغتلمة في الضراب . احيلك من ذلك على معاينة لا كمن يحيل على ضعيف اسناده ولو كان كزعم من يزعم انه يلقح بدمعة تسفحها مدامعه فتقف في ضفتي جفونه وان انثاه تطعم ذلك ثم تبيض لا من لقاح فحل سوى الدمع المنبجس لما كان ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب » . فإذا فرغ من تفنيد هذا القول اللاعلمي عاد يستكمل صورة طائره المحبب :

«تختال قصبه مداريّ من فضة وما أنبت عليها من عجيب داراته وشموسه خالص العقيان وفلذ الزبرجد . فإن شبهته بما انبتت الأرض قلت جَنيٌ جُني من زهرة كل ربيع . وان ضاهيته بالملابس فهو كموشىَ الحلل أو كمونق عصب اليمن . وان شاكلته بالحُلي فهو كفصوص ذات ألوان قد نُطقتْ باللجين المكلل .

ثم يعرج على تأمل سلوكه النفسي وما يمليه عليه جماله من زهو بنفسه وما يعقب ذلك من مرارة الخيبة بقبح قوائمه ونكر منظر ساقيه .

«يمشي مشي المرح المختال . ويتصفح ذنبه وجناحيه فيقهقه ضاحكا لجمال سرباله وأصابيغ وشاحه . فإذا رمى ببصره الى قوائمه زقا معولا بصوت يكاد يبين عن استغاثته ويشهد بصادق توجعه لأن قوائمه حمش كقوائم الديكة الخلاسية وقد نجمت من ظنبوب ساقه صيصية خفية» .

غير ان الله من نكر ساقيه وحمش قوائمه سرعان ماتغطي عليه أفانين الجمال المتناثرة في بقية أجزاء جسده فله «في موضع العرف قنزعة خضراء موشاة ، ومخرج عنقه كالابريق ، ومغرزها الى حيث بطنه كصبغ الوسمة اليمانية أو كحريرة ملبسة مرآة ذات صقال وكأنه متلفح بمعجر أسحم إلا أن يخيل لكثرة مائه وشدة بريقه أن الخضرة الذخرة ممتزجة به . ومع فتق سمعه خط كمستدق القلم في لون الاقحوان ، أبيض يقق . فهو بياضه في سواد ما هناك يأتلق» . وأحسبنا مدعوين الى الوقوف قليلاً هنا الى امعان النظر في تفاصيل هذا الجانب من الصورة فهي مؤثرة حقا .

فعنق هذا الطائر كالإبريق وهي سوداء كالوسمة اليمانية وسواد عنقه كالمعجر الاسحم أي كالرداء الأسود الفاحم الذي تضع المرأة طرفه على رأسها وتمر بالطرف الآخر منه تحت ذقنها حتى ترده الى الطرف الأول فيغطي رأسها وعنقها وعاتقها وبعض صدرها . غير أن معجر الطاووس أحلى وأبهى فهو لكثرة مائه وشدة بريقه يخيل لمن يراه أن الخضرة الناظرة ممتزجة به . وعند أذنه التي يعبر عنها الامام هذا التعبير الجميل «فتق سمعه» خط كمستدق القلم في لون الأقحوان

أبيض يقق أي هو في حالة تعارض كلي مع لون العنق الأسود وهذا ما يضاعف من جماله فهو ببياضه في سواد ما هنالك يأتلق .

على أن هذا الجمال الباذخ في هذا الطير الأنيق انما هو جزء من قانون طبيعي مرسوم يقضي بتجدده أبداً لأن التجدد الدائم هو سر الحياة وقوتها الدافعة الرئيسة .

«وقد يخسر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط تترى وينبت تباعا ، فينحت من قصبه انحتات أوراق الأغصان ثم يتلاحق نامياً حتى يعود كهيئته قبل سقوطه لايخالف سالف ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه» .

وهكذا يتم الإمام صفة الطاووس بأن يثبت القانون الطبيعي القائم خلف وجوده ، قانون التجدد الدائم كما تقول الفلسفة أو قانون التجدد والاندثار كما يقول العلم . . وتلك هي روح العلم العظمى وهو روح الإمام .

احمد الصافي النجفي

جرح التغرب

حتى مَ ابعدُ عن اهلي وعن سكني ... وهل يجود برؤيا موطني زمني
اما كفت غربة في الروح أجرعها ... حتى تضاف اليها غربة الوطن

★ ★ ★

روحي بأرض العراق عالقة ... والعقل سامٍ عن امدن المدن
احار بين التفتيش عن وطن ... يفهمني او محبة الوطن

★ ★ ★

جُرح التغرب في فؤادي بالغ ... ابغي شفاه ببلسم النسيان
فتشقق النسيان عنه واصبحت ... للجرح تهطل بالدما عيناك